افتتاحية العدد:

المنسيّون المهمّشون روّاد الحضارة

بقلم: الدكتور جمال عرفات

أستاذ محاضر ومنسق مادة الحضارة العربية الإسلامية في الجامعة اللبنانية الدولية

jamal.arafat@liu.edu.lb

تغيّرات ومتغيّرات أصابت البشريّة وكوكبها عبر كلّ العصور؛ منها الطبيعيّ، ومنها السياسيّ والعسكريّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ، وأفرزت رموزًا– أعجبتنا أم لم تُعجبنا– ذكرها الكثير من المؤرّخين أو الذين دخلوا عَنْوة إلى التأريخ، بأنّ تلك الرموز «القادة» أنارت الأرض قِيمًا إنسانيّة وحضاريّة، أو أنّها دمّرت البشريّة، وأخّرت تقدّمها، وأوقفت مسيرةً لو أتيح لها الاستمرار لغدت فيها الشعوب في أعلى مستويات الحرّيّة والسعادة والأمان..

قد يكون ذلك للبعض صحيحًا، وللبعض الآخر نوعًا من التحايل على الحقيقة بإبراز وجهٍ مجمّل لخلفيّة قبيحة أو لأفكار هدّامة، فتصارعت تلك الأفكار، وأخذت طابعًا دراماتيكيًّا ومأساويًّا قضى على آمال شعوب كثيرة وأحلامها، عبر مختلف العصور.

فإذا ما اتّخذنا حادثةً ما في أيّ مرحلة أو حِقْبة سابقة، وفي أيّ منطقة من العالم، نجد أنّ فريقًا، ساهم في بناء البشريّة وحضارتها وتقدّمها، ولم يذكره المؤرّخون، ألا وهو أولئك المنسيّون المهمّشون روّاد الحضارة.

فالتراث الحضاريّ الذي أنتجته البشريّة زال بعضه أو بقيَ بعض أثاره، إلى يومنا هذا (نقوش وحفريّات ومعابد وهياكل وقلاع ومدن..)، ما هو إلّا دليل على مهارة الشعوب التي لم يركّز التاريخ وكتّابه على هذه المجموعات الثائرة دائمًا والمنتَهَكة حقوقها على الدوام، وبالتالي، ركّز الكثير من المؤرّخين على تلك الرموز الحاكمة والمتسلّطة الّتي ادّعت؛ فيما ادّعته الألوهيّة، تحت عناوين سياسيّة وقوميّة وعِرقيّة..

إنّ الخوض في تاريخ هؤلاء المهمّشين، عبر التاريخ، صار له بُعدٌ بحثيٌّ على الدارسين والباحثين وطلاب العِلم الغوص في ثناياه واستكشاف روّاد الحضارة والتقدّم والحرّيّة..

وإذا ما انتقلنا من التاريخ الغابر إلى التاريخ الحديث أو المعاصر، يمكننا التوقّف عند أكثر من حدثٍ محليٍّ أو إقليميٍّ عربيٍّ أو أبعد منهما، لنستكشف تاريخًا جديدًا له مفاهيمه وشخصيّاته ووقائعه

وظروفه، لذا، نحن مدعوّون، اليوم، لتوجيه طلّابنا والباحثين، وفي مختلف القرى والمدن، إلى التركيز على التاريخ الشفويّ، و»لملمة» الأحداث وجمع الوثائق وتسجيل الروايات وما إلى ذلك من أمور التقميش والبحث التاريخيّ، علّنا نستطيع أن نعثر على إجاباتٍ أخرى عمّا هو متداول ومؤرّخ ومنشور.

هناك مسؤوليّة كبيرة تقع على عاتق مؤسّسات المجتمع المدنيّ، بكل تلاوينه، للدفع نحو استنباط نوعٍ جديد من العمل، يدفع البلديّات والمؤسّسات التربويّة والتعليميّة والإدارات العامّة والهيئات النقابيّة إلى تحمّل مسؤوليّاتها، في هذا الصدد.

فهل هناك من دراسة فعليّة لتاريخ أفرادٍ أو جماعاتٍ كان لها الدور الرياديّ في سلسلة المتغيّرات الوطنيّة والقوميّة؟ أين دور العمّال والفلّاحين في كلّ هذا؟ أين دور النساء اللواتي قدّمن الكثير في كلّ معارك الحرّيّة والنضال؟ وأين دور المثقّفين والعمّال والطلّاب في كلّ ما جرى؟ ألا يستحقّ كلّ هؤلاء أن يذكرهم التاريخ، ويُنصفهم؛ فنحن لم نتعلّم سوى تاريخ الزعامات والرموز الإقطاعيّة والسياسيّة التي صنعناها، وأوكلناها غصبًا أو حاجةً مهمّة إلى التحدّث باسمنا، فأهملنا تاريخ البسطاء الذين ساهموا في بناء الوطن أو الأوطان.

قد يكون هناك قياديّون وأبطال ساحات ومواقف، لكنّ الحقيقة – إن جاز التعبير – تبقى رؤية هؤلاء القادة في بناء المستقبل.

نعم، فالأنبياء لم يُهملوا أتباعهم وتلامذتهم وأصحابهم، وكان يعودون إليهم، في كلّ مسائل الدنيا، من مبدأ الشورى، فقصص الصحابة لا تتوقف، فتراهم، عند كلّ المواقف، مشاركين رأيًا ومسيرةً ونهجًا مقدّمين الغالي للوصول إلى الأهداف التي يرجونها.

القائد يصنع القادة، ويجعل من الجميع قادة، لكنّ الرموز، بأموالها ومراكزها وتأثيراتها، تصنع، لنفسها، تاريخًا، خطّه مأجورون بالمال والمناصب، فألبسوا الحدث العظيم شخصيّاتهم البطوليّة، واخترعوا كلامًا لا ينطق به سادتهم، وألبسوا التاريخ عباءات مشوّهة، صانعين لأحداثٍ ومحطّات غير موجودة أصلًا؛ فكم من الشخصيّات والروايات والقصص والحكايات الوهميّة دخلت تاريخنا، وجعلتنا نتذاكى في تفسيراتها، واتّخذنا مواقفَ مازالت تعيش حاضرنا وربّما مستقبلنا بشقيّه القريب والبعيد، وآثرت أن لا تتركنا، فعشنا فيها عزّةً وكرامة، وجعلنا من أبطالها قلائد وأوسمة، غطّت صدورنا، وبتنا متمسّكين بها، رافضين البحث في صدقيّتها، معتبرين أنّها حقيقة لا محال.

المطلوب اليوم، وأكثر من أيّ يوم، الدفع باتّجاه حثّ أنفسنا أوّلًا وطلّابنا ثانيةً على إعادة النظر في كلّ الروايات وشخصيّاتها ونقدها بموضوعيّة، وتقديم لغة جديدة في مفهوم جديد عصريّ خالٍ من اللّغط والأوهام والتبعيّة، وإبراز دور صانعي التاريخ، وأقصد، هنا، أولئك المنسيّين المهمّشين، والأمثلة على ذلك لا تُحصى، بل قد تتعدّى كلّ الكتابات والروايات والأحداث، علّنا نكون قد استطعنا إبراز الوجه الحقيقيّ لتلك الرموز، وإنصاف بعضها، إن أمكن، وإعادة الاعتبار إليه، كما يمكن أن نُعرّي بعضهم، من دون أن ننساهم، أو نمحوَ ذكرهم من التاريخ.